(٣)

" لقد رضي الله تعالى عن أصحاب بيعة الرّضوان فأنزل الطّمأنينة عليهم، ووعدهم مغانم كثيرة، وعجل لهم فتح خيبر، وهيأ لهم أسباب فتح مكّة، ووعدهم بالنصر المبين على الكافرين أصحاب الحمّية الجاهلية "

الآيات (١٨-٢٦)

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

إذ يبايعونك : يا محمد[١] وهي بيعة الرضوان[٢].

تحت الشجرة : كانت سَمُرة بأرض الحديبية[٣] والجمع سَمُر ، وهو ضربٌ من شجر الطّلح[٤] والطلح : شجرٌ عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل[٥] والعضاه : كلّ شجرٍ له شوكٌ صغَر أو كبر. الواحدة عِضَاهة[٦]، وكان عددهم ألفاً وأربعمائة[٧] وسبب البيعة الخبر الذي بلغ النّبيّ ﷺ بأنّ عثمان قد قُتِل، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى قريش ليخبرهم أنّه عليه الصّلاة والسّلام إنما جاء معتمراً[٨] فكان النّاس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت[٩]، فكان جابر بن عبد الله يقول إنّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكنّه بايعنا على أن لا نفرّ[١٠] ثمّ أتى رسول الله ﷺ أنّ الّذي

---

[١] تفسير الطبرى ٥٣/٢٦ .

[٢] تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ وتفسير ابن كثير ٣١٤/٧ .

[٣] وتفسير ابن كثير ٣١٤/٧ وتفسير الطبرى ٥٤/٢٦ و٥٥ .

[٤] المعجم الوسيط : ((سمر)) .

[٥] المعجم الوسيط : ((طلح)) .

[٦] المعجم الوسيط : ((عضه)) .

[٧] تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ و فتح البارى ٤٤٣/٧ حديث رقم ٤١٥٤.

[٨] تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ .

[٩] تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ و فتح البارى ٤٤٩/٧ حديث رقم ٤١٦٩.

[١٠] تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ .

ذكر من أمر عثمان باطل[1].

وأثابهم فتحاً قريباً : وذلك فيما قيل فتح خيبر[2].

لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك زمن الحديبية يا محمّد تحت شجرة السّمُر على أن لا يفرّوا أمام الأعداء في ميدان القتال، فعلم ما في قلوبهم من النُّصح لله تعالى ولرسوله ﷺ وصدق العزيمة، فأنزل عزّ وجلّ السّكينة والطّمأنينة عليهم، وأثابهم جزاء نصحهم وصدقهم فتحاً قريباً، هو فتح خيبر. وأثابهم كذلك مغانم كثيرة يأخذونها تباعاً. وكان الله تعالى دائماً وأبداً عزيزاً في ملكه، حكيماً في تدبيره،

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

فجعل لكم هذه : غنائم خيبر[3] وكانت غزوة خيبر في المحّرم سنه سبع[4].

وكف أيدي النّاس عنكم : وكفّ الله أيدي المشركين عنكم وعن عيالكم حينما سرتم من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكّة[5] .

ولتكون آيةً للمؤمنين: وليكون كفّه – تعالى ذكره – أيديهم عن عيالهم آية وعبرةً للمؤمنين به فيعلموا أنّ الله هو المتولّى حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم[6].

---

(1) تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ .

(2) تفسير الطبرى ٥٤/٢٦ .

(3) تفسير الطبرى ٥٥/٢٦ .

(4) السّيرة النّبويّة ٣٤٢/٣ وفتح خيبر فى صفر السّيرة النّبويّة ٣٥٥/٣ .

(5) أنظر تفسير الطّبرى ٥٦/٢٦ و ٥٧ تفسير ابن كثير ٣٢٢/٧ .

(6) تفسير الطبرى ٥٧/٢٦ .

وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها : ووعدكم أيّها القوم ربّكم فتح بلدة أخرى لم تقدروا على فتحها قد أحاط الله بها لكم حتّى يفتحها لكم[1]، عن قتادة : كنّا نُحدِّث انّها مكّة[2] وعدكم الله تعالى أيها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ المجاهدون في سبيل الله تعالى مغانم كثيرةً تأخذونها مستقبلاً ثمرةً يانعةً لنصر الله تعالى لكم على عدوّه عزّ و جلّ وعدوّكم ، فعّجل لكم هذه الغنيمة في غزوة خيبر، وكفّ أيدي المشركين الّذين أرادوا إيصال الأذى إلى أهليكم الّذين تركتموهم وراءكم وانطلقتم للجهاد في سبيل الله تعالى مستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ. ولتكون نعمة صرف المشركين عن إيصال الأذى إلى أهل المؤمنين الّذين خلّفوهم وراءهم في ديارهم، آيةً للمؤمنين بأنّ الله تعالى، مع المؤمنين المجاهدين في سبيله عزّ وجلّ وناصرهم وصارف الأذى عنهم في كلّ زمان مكان. وليهديكم أيّها المؤمنون المجاهدون في سبيله عزّ وجلّ صراطاً مستقيماً، وطريقاً قويماً موصلاً إلى جنّات النّعيم المقيم بإذن الله تعالى.

ووعدكم الحقّ جلّ وعلا فتح مدينةٍ أخرى لّما تقدروا عليها وهي مكّة المكرّمة. لقد أحاط الله تعالى علما بها حتّى يفتحها لكم، وهيّأ أسباب فتحها، وكان الله تعالى على كلّ شيءٍ قديراً، بنصركم في الكثير من المواطن، وبتتويج نعمه عليكم بالنّصر العظيم ، وفتح مكّة المكرّمة المبين.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

---

[1] تفسير الطبرى ٥٧/٢٦ .

[2] تفسير الطبرى ٥٨/٢٦ وأنظر السيرة النبوية ٣١/٤ فى أسباب فتح مكة .

ولو قاتلكم الّذين كفروا: يعنى كفّار قريش[1] بالحديبية[2] سنّة الله: سنّة مفعول مطلق لفعلٍ محذوف[3] أي سنّ الله في ذلك سنّة[4].

ولو قاتلكم كفّار قريش بالحديبية يا ايّها المؤمنون لولّوا الأدبار، وانهزموا عنكم، وأروكم أعجازهم، ثمّ لا يجدون وليّاً يتولى مصالحهم ولا نصيراً ينصرهم فإن الكافرين لا مولى لهم ولا ناصر.

تلك هي سنّة الله تعالى الّتي سنّها في الأمم الكافرة الّتي مضت من قبل، ولن تجد أيّها الإنسان لسنّة الله تعالى تبديلاً ولا تغييراً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

بطن مكّة : بالحديبية[5]، وبعض الحديبية في الحلّ وبعضها في الحرم[6] وجاء في سبب النزول في صحيح مسلم[7] عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين يريدون غرّة[8] النّبيّ ﷺ وأصحابه فأخذهم

---

(1) تفسير الطبرى ٥٨/٢٦ .

(2) الجلالين .

(3) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨١/١٢ .

(4) جلالين .

(5) تفسير الطبرى ٥٨/٢٦ .

(6) معجم البلدان الحديبية .

(7) ١٤٤٢/٣ حديث رقم ١٨٠٨ وانظر تفسير ابن كثير ٣١٧/٧ وانظر صحيح مسلم ١٤٣٥/٣ حديث رقم ١٨٠٧ فى سبب النّزول أيضاً .

(8) غِرّة : غفلة .

سَلَما[1] فاستحياهم فأنزل الله عزّ وجلّ الآية الكريمة.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي كفّ أيدي المشركين عنكم فلم يستطيعوا أن يمدّوها إليكم بسوء، ولله تعالى الحمد والمنّة، وهو الّذي كفّ أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وجعل بعضهم أسرى في أيديكم فمننتم عليهم؛ وأطلقتم سراحهم تأكيداً للغاية الّتي جئتم من أجلها وهي أداء العمرة وليس القتال. وكان الله تعالى بما تعملون بصيراً ، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

والهدي : وصدّوا الهدي[2]. وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكّة في سفرته تلك سبعين بدنة[3] معكوفاً : محبوساً[4].

---

[1] سَلَمَا : استسلاماً وإذعاناً .

[2] تفسير الطبرى ٦٠/٢٦ .

[3] تفسير الطبرى ٦٠/٢٦ .

[4] تفسير الطبرى ٦٠/٢٦ .

أن يبلغ محلّه : عن أن يبلغ مَحِلّه[1]، أي محلّ نحره . وذلك دخول الحرم والموضع الّذي إذا صار إليه حلّ نحره[2]، المحلّ بكسر الحاء هو من حَلّ يَحِل (بكسر الحاء) أي وجب يجب . وعليه فالمحِلّ الموضع الّذي يحلّ فيه نحره[3] .

أنّ تطؤوهم : بخيلكم وَرجلِكُم لم تعلموهم بمكّة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم[4]

معرّة : إثم[5] ومساءة[6] وغرامة[7]

ليدخل الله في رحمته من يشاء : المصدر المؤوّل : أن يدخل ، في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف. أي لم يأذن الله بالفتح ليدخل[8]، وجواب لولا محذوف أي لأذن لكم في الفتح لكن لم يؤذن فيه حينئذ[9]، أو لما كفّ أيديكم عنهم[10] وحذف جواب لولا استغناءً بدلالة الكلام عليه[11].

لو تزيّلوا : لو تميّزوا عن الكفّار[12].

---

(1) تفسير الطبرى ٦٠/٢٦ والجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٣/١٢ .

(2) تفسير الطبرى ٦٠/٢٦ .

(3) لسان العرب : ((حلل)) .

(4) تفسير الطبرى ٢٦/ ٦٥ .

(5) تفسير الطبرى ٢٦/ ٦٥ .

(6) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٥/١٢ .

(7) تفسير ابن كثير ٣٢٥/٧ .

(8) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٤/٢ .

(9) الجلالين .

(10) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٤/١٢ .

(11) تفسير الطبرى ٢٦/ ٦٥ .

(12) الجلالين .

إذ جعل : إذ ظرف للزّمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بعذّبنا[1]

الحميّة : الأنفة من الشّيء[2] والقوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت[3]

حميّة الجاهليّة : كانت حميّتهم أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ الله ، ولم يقرّوا ببسم الله الرّحمن الرّحيم، وحالوا بينه وبين البيت[4].

كلمة التّقوى : لا إله إلاّ الله محمّدٌ رسول الله[5].

كفار قريش هم الّذين كفروا بالله تعالى وصدّوكم أيّها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ عن المسجد الحرام لأداء العمرة، وصدّوا الهديّ الّذي معكم محبوساً عن أن يبلغ المكان الّذي يَحِلّ فيه ذبحه ويجب نحره وهو الحرم. وكان مع النّبيّ ﷺ سبعون بدنة. ولولا رجالٌ مؤمنون، ونساءٌ مؤمنات موجودون بالحرم لم تعلموهم أن تطؤوهم بخيلكم فتصيبكم منهم مساءةٌ بغير علم؛ وإثْم من غير قصدٍ؛ لأذن الله تعالى لكم في الفتح. لم يأذن الله تعالى بالفتح ليدخل عزّ وجلّ في رحمته من يشاء من أولئك الكافرين الّذين قدّر الله تعالى لهم الهداية واعتناق دين الإسلام. لو تميّز المؤمنون عن الكافرين وانفصلوا عنهم؛ لعذب الله تعالى الكافرين عذاباً اليماً ولسلّطكم عليهم ، حين جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة دون سبب ، والأنفة دون موجب، حميّة الجاهلية الجهلاء والفتنة العمياء. وفى المقابل أنزل الله تعالى سكينته وطمأنينته على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التّقوى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله قولاً وعملاً، وكانوا أحق الناس بكلمة التقوى، وأولى الخلق بكلمة الحقّ، وأهل كلمة

---

(1) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١٢/٨٥ .

(2) الجلالين الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١٢/٨٥ .

(3) مفردات الرّاغب الأصفهانى : ((حمى)) ١/١٧٥ .

(4) فتح البارى ٥/٣٣٣ حديث رقم ٢٧٣١ رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢ .

(5) تفسير الطبري ٢٦/ ٦٦ .

التّوحيد، وأجدر النّاس بالقيام بتبعاتها. وكان الله تعالى بكلّ شيْ عليماً، فلا يخفى عليه جلّ وعلا دفائن النفوس ، وحقائق القلوب، وأولى النّاس بكلمة الصّدق، وشهادة الحقّ.

(٤)

" لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا بدخول المسجد الحرام، وصدق الله تعالى بإظهار دين الإسلام على الدين كله ، وصفة الصحابة رضوان الله عليهم في التوراة والإنجيل"

الآيات (٢٧ - ٢٩)

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

فعلم ما لم تعلموا : فعلم الله تعالى من الخِيَرة والمصلحة في صرفكم عن مكّة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم[1].

فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً : قال بعضهم هو الصلح الذي جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش[2] عن الزّهريّ : ما فُتِح في الإسلام فتحٌ كان أعظم منه[3] وقال بعضهم هو فتح خيبر[4] .

لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ بالحقّ. الرّؤيا الّتي رآها عليه الصّلاة والسّلام في النّوم، بأنّه دخل مكّة المكرّمة وطاف بالبيت الحرام، وأخبر بها الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. إنّ تحقّق الرّؤيا تمّ في عمرة القضاء في ذي القعدة سنه سبعٍ من الهجرة تنفيذاً لشروط صلح الحديبيّة[5] لتدخلنّ أيّها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ المسجد الحرام إن شاء الله تعالى آمنين لا تخافون المشركين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين شعوركم بعد أداء النّسك لا تخافون إلا الله تعالى.

---

[1] تفسير ابن كثير ٣٤١/٧ .

[2] تفسير الطّبري ٦٨/٢٦ .

[3] تفسير الطّبري ٦٨/٢٦ .

[4] تفسير الطّبري ٦٩/٢٦ والسّيرة النّبويّة ١٤/٤ .

[5] أنظر مثلا تفسير ابن كثير ٣٣٧/٧ وفتح الباري ٤٩٩/٧ حديث رقم ٤٢٥١ و ٤٢٥٢ والسّيرة النبوية ١٢/٤ .

لقد علم الله تعالى ما لم تعلموا من المصلحة في أداء العمرة بعد سنةٍ من صلح الحديبية فجعل عزّ وجلّ من دون ذلك وقبله فتحاً قريباً ونصراً عزيزاً، هو فتح خيبر. وقد يكون الصّلحٍ نفسه هو الفتح المبين، والنّصر القريب. والله تعالى أعلم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾

وكفى بالله شهيدا : وحسبك به شاهداً[1] الواو استئنافية، لفظ الجلالة مجرور لفظاً بالباء مرفوع محلً فاعل كفى.

شهيداً : حال منصوبة أو تمييز[2].

الله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى من الضلالة ودين الإسلام الحق ليظهر عز وجل دين الإسلام الذي بعث به محمّداً ﷺ وأكمله ورضيه لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم على كلّ دين آخر سماويّ أو غير سماويّ. وحسبك بالله تعالى شاهداً، وكفى بالله تعالى شهيداً أنّ دين الإسلام، الّذي بعث به عزّ وجلّ محمداً ﷺ ونسخ به كلّ دين سوف، يعلو على كلّ دين ويغلبه ، بحيث تكون الأمّة الإسلامية أكبر الأمم وأعظمها.

---

(١) تفسير الطّبرى ٦٩/٢٦ .

(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٧/١٢ .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

سيماهم : علامتهم[١].

في وجوهم من أثر السّجود: عن ابن عباس: سيما الإسلام وسَحْنته وسمته وخشوعه[٢] وعن مجاهد: الخشوع والتّواضع[٣].

وقال بعض السّلف: من كثرت صلاته باللّيل حَسُن وجهه بالنّهار[٤] وروي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته[٥] وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسّر أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٦].

ذلك مثلهم في التّوراة : هذة الصّفة الّتي وصفت لكم من صفة أتباع محمّد ﷺ الّذين في التوراة[٧] ومثلهم في الإنجيل : وصفتهم في إنجيل عيسى[٨].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٦/٧٠ .

(٢) تفسير الطّبرى ٢٦/٧٠ .

(٣) تفسير الطّبرى ٢٦/٧٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣ .

(٧) تفسير الطّبرى ٢٦/٧١ .

(٨) تفسير الطّبرى ٢٦/٧١ .

كزرع : الزّرع في الأصل مصدر، وعُبِّر به عن المزروع. والزّرع الإنبات. وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهيّة دون البشريّة[1].

أخرج شطأه: أخرج فراخه، وهو ما خرج منه وتفّرع في شاطئيه أي في جانبيه[2] وأشطأ الشّجر بغصونه أخرجها[3].

فآزره : فقوّاه[4] فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشّطء مع الزّرع[5] .

فاستغلظ : فَغَلُظ الزّرع[6] وشبّ وطال[7] .

فاستوى : قوي واستقام [8].

على سوقه : على أصوله جمع ساق[9].

بعد أن شهد الحقّ جلّ وعلاء ، وكفى به شهيداً، أنّه عزّ و جلّ سيظهر دين الإسلام الّذي بعث به محّمداً ﷺ على جميع الأديان، شهد جلّ وعلا، وكفى به شهيداً، أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ رسوله عزّ وجلّ، فلا قيمة لإصرار قريش على عدم كتابة صفته عليه الصّلاة والسّلام بأنه رسول الله في وثيقة الصّلح.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « زرع » ١/٢٨٠ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٦/٧١ ومفردات الرّاغب الأصفهانى : « شطا » ١/٣٤٤ .

(٣) لسان العرب : « شطأ » .

(٤) تفسير الطّبرى ٢٦/٧٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣ .

(٦) تفسير الطّبرى ٢٦/٧٧ .

(٧) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣ .

(٨) الجلالين .

(٩) الجلالين .

وكما أثنى الحقّ جلّ وعلا في القرآن الكريم على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، أثنى عليهم مِنْ قَبْلُ في الكتب السّماويّة السابقة كالتّوراة والإنجيل. فما صفة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في التّوراة الّتي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام؟ إنّهم أشدّاء على الكفّار الّذين يجدون فيهم غلظة، رحماء بينهم، يذوب بعضهم لبعض فرط رقّة وشفقة. تراهم أيّها الإنسان في صلاة الجماعة والفرد، الفرض والنّفل، راكعين ساجدين. ومعروفٌ أنّ الصّلاة عماد الدّين، وأنّ من أدّاها بشروطها فذلك معناه أنّه مؤدٍّ لسائر الأركان والواجبات والسّنن. إنهم يبتغون الفضل من الله تعالى الّذي لا حدّ لفضله، ورضواناً من الله تعالى هو أكبر من كلّ فضل. علامتهم في وجوههم من أثر السجود في الصلاة تبدو في هيئة النّور الّذي تشرق به وجوههم ، ثمرةً شهيّة لخشوع جوارحهم لله تعالى، وخضوع قلوبهم، وانشراح صدورهم، واطمئنان نفوسهم . هذه هي صفتهم في التّوراة. ولا يخفى أنّ هذه الصّفة الجميلة، والسّمت الحسن، ثمرةٌ شهيّة لإخلاصهم العبادة لله تعالى. هذه هي أخلاقهم العظيمة، وسلوكهم اللّطيف، وتعاملهم، مع الآخرين النّظيف.

أما صفتهم في الإنجيل الّذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام، فإنّهم كزرعٍ أخرج فراخه على جوانبه، وكشجر أخرج أغصانه، فقوي الزّرع بفراخه وصغاره، والشجر بأغصانه وفروعه، وشبّ الزّرع وطال واشتدّ، وانتصب قائماً على سوقه، أصله ثابت في أعماق الأرض، وفرعه في أجواء السّماء.

وكما يعجب ذلك الزّرع الّذي تلك صفته الزّرّاع الّذين حرثُوا، وسقَوْا ورعَوْا، يَغيظُ المؤمنون الذين تلك صفتهم في الإنجيل وفي القرآن الكريم، الكافرين الّذين يصدّون عن سبيل الله تعالى ويصدّون المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ عن زيارة المسجد الحرام . وبقدر امتلاء قلوب الزّرّاع بهجةً وسعادةً ورضاً لذلك الزّرع الّذي يملأ كلّ

عينٍ لذّة ، وكلّ نفسٍ بهجة ، تمتلئ قلوب الكافرين غيظاً على المؤمنين وحقداً وشقاءً. وهذه هي صفة الكافرين الذليلين الحقيرين تجاه المؤمنين العزيزين الأعلين إلى يوم القيامة.

وعد الله تعالى الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وعملوا الصّالحات من الصّحابة -رضوان الله تعالى عليهم- مغفرةً لذنوبهم، وأجراً عظيماً هو الجنّة الّتي فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذا الوعد من الله تعالى ينسحب بفضل الله تعالى على جميع المسلمين. قال مالك رحمه الله : بلغني أنّ النصارى كانوا إذا رأوا الصّحابة الّذين فتحوا الشّام يقولون : والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريّين فيما بلغنا . وصدقوا في ذلك . فإنّ هذه الأمة معظّمةٌ في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ . وقد نوّه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[1].

---

[1] تفسير ابن كثير ٣٤٣/٧ .

التعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١- سورة الفتح من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى رسول الله ﷺ بعد الهجرة[١]. روى البخاريّ في صحيحه[٢] أنّ رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره[٣]. وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيءٍ فلم يُجبْه رسول الله ﷺ ، ثمّ سأله فلم يجبه ثمّ سأله فلم يجبه . فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر[٤] نَزَرْت[٥] رسول الله ﷺ ثلاث مرات كلّ ذلك لا يجيبك . قال عمر : فحرّكت بعيري ثمّ تقدّمت أمام النّاس وخشيت أن يَنْزل فيّ القرآن . فما نشِبْت[٦].أن سمعت صارخاً يَصْرُخ بي. فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: لقد أُنْزِلَت عليَّ اللّيلة سورةٌ لهي أحبُّ إليّ مّما طَلَعَتْ عليه الشّمس. ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

---

[١] انظر ــ مثلا ــ الإتقان ٤٣/١ وتفسير الطّبرى ٤٣/٢٦ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٣/٢٦ والجلالين وتفسير ابن كثير ٣٠٧/٧ المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٨٤/١٥ والكشّاف ١٣٥/٣ والبحر المحيط ٨٧/٨ وتفسير القرطبى ٦٠٧٩/٧ .

[٢] فتح البارى ٥٨٢/٨ حديث رقم ٤٨٣٣ وأنظر ٤٥٢/٧ حديث رقم ٤١٧٧ و٥٨/٩ حديث رقم ٥٠١٢.

[٣] السفر المذكور فى أثناء العودة من عمرة الحديبية فتح البارى ٥٨٣/٨ .

[٤] الثُّكْل فقدان المرأة ولدها . فتح ٥٨٣/٨ ويقال : الثُّكْل بضمّ وسكون والثَّكل بفتحتين .

[٥] نَزَرْت بزاي ثمّ راء بالتّخفيف والتّثقيل ، والتّخفيف أشهر ، أي ألححت عليه . فتح ٥٨٣/٨ .

[٦] فما نَشِبْت ، بكسر المعجمة بعدها موحّدة ساكنة ، أي لم أتعلّق بشيء غير ما ذكرت . فتح ٨/ ٥٨٣ .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وعشرون آية، وكلماتها خمسمائة وستّون كلمة، وعدد حروفها ألفان وأربعمائة وثمانيةٌ وثلاثون حرفاً[١] .

٣- سُمّيت السّورة الكريمة سورة الفتح لقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الأولى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ علماً بأنّ لفظ : « فتحاً » جاء في لآيتين الكريمتين الثّامنة عشرة والسّابعة والعشرين قال تعالى ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .لقد جاء لفظ «فتحاً» في سورة الفتح ثلاث مرّاتٍ من أربع مراتٍ في القرآن الكريم كلّه ، وذلك بفتح الحاء[٢].

٤- روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفّل قال : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فَرَجَّع[٣] فيها . قال

---

[١] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٣/٢٦ .

[٢] الموضع الرّابع في سورة الشّعراء الآية ١١٨ على لسان نوحٍ عليه السّلام .

[٣] قال القاضي عياض : أجمع العلماء على استحباب تحسين الصّوت بالقراءة وترتيلها . قال أبو عبيد : والأحاديث الواردة في ذلك محمولةٌ على التّحزين والتّشويق . قال : واختلفوا في القراءة بالألحان . فكرهها مالك والجمهور بخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتّفهّم . وأباحها أبو حنيفة وجماعةٌ من السّلف . والتّرجيع ترديد الصّوت في الحلق . صحيح مسلم ٥٤٧/١ هامش رقم ١ حديث رقم ٧٩٤ وجاء في فتح الباري ٥٨٤/٨ : " فرجّع فيها : أي ردّ صوته بالقراءة . وقد أورده في التّوحيد من طريق أخرى بلفظ :

معاوية[1] لولا انّي أكره أن يجتمع النّاس علينا لحكيت لكم قراءته . أخرجاه[2] من حديث شعبة به[3].

٥- محور السّورة الكريمة عمرة الحديبية وما كان من خروجٍ للنّبيّ ﷺ لأداء العمرة ، وصدّ المشركين له ﷺ ، وإبرام عقد الصّلح مع مشركي قريش ، وبيعة الرّضوان، ووعد الله تعالى المؤمنين بفتح خيبر القريب، وفتح مكّة، وبالمغانم الكثيرة مستقبلاً والنّصر المبين، وإنزال الله تعالى السّكينة على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، ورضا الله تعالى عن أصحاب بيعة الرّضوان، والثّناء على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في القرآن الكريم وفى التّوراة والإنجيل، واللوم العنيف لكلّ من المخلّفين من الأعراب عن الخروج مع النّبيّ ﷺ بباعث النّفاق وليس بسبب الأعذار المدّعاة ، واللّوم العنيف للمشركين.

٦- كان صلح الحديبية فتحاً مبيناً. جاء في الآية الكريمة الأولى خطاباً للمصطفى ﷺ القول : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » وحينما نزلت السّورة الكريمة على المصطفى ﷺ في طريق العودة إلى المدينة المنوّرة وقرأها ﷺ على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم، قال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الّذي رواه الإمام أحمد: أَيْ رسول الله ، وفتحٌ هو ؟ قال : إي والّذي نفس محمّدٍ بيده إنّه لفتح[4].

كيف ترجيعه ؟ قال : ءا ءا ءا ثلاث مرات . قال القرطبي : هو محمولٌ على إشباع المدّ فى موضعه ... فى رواية علىّ بن الجعد ... وهو يقرأ قراءةً ليّنة "

[4] معاوية بن قُرّة راوى الحديث عن عبد الله بن مُغَفّل .

[5] فتح البارى ٥٨٣/٨ حديث رقم ٤٨٣٥ وصحيح مسلم ٥٤٧/١ حديث رقم ٧٩٤ .

[6] تفسير ابن كثير ٣٠٧/٧ .

[4] تفسير ابن كثير ٣٠٨/٧ .

٧- لقد جاءت لفظة سكينة في سورة الفتح ثلاث مرّات، وذلك في الآيات الكريمات الرّابعة، والثّامنة عشرة، والسادسة والعشرين، وذلك بأكثر من أي سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم ، لقد كان الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم يعتقدون أنّهم سيزورون المسجد الحرام في ذلك العام، فلمّا صدّهم قريش وأملت الشروط الّتي في ظاهرها أنها في غير صالح المسلمين، والحقيقة أنّها كانت في صالحهم وقد ثبت ذلك لاحقاً، ولما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يعتقدون أنهم بإذن الله تعالى قادرون على إلحاق الهزيمة بالمشركين في ميدان القتال، لكلّ ذلك كانت الحاجة كبيرةً لإنزال السّكينة على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بقيادة المصطفى ﷺ، وهذا ما بيّنته السّورة الكريمة.

٨- كان الحديث عن بيعة الرّضوان في الآية الكريمة العاشرة . قال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وجاء الحديث عن رضا الله تعالى عن أصحاب بيعة الرّضوان في الآية الكريمة الثامنة عشرة. قال تعالى : « ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا »

٩- لقد تحدّثت السّورة الكريمة عن المصطفى ﷺ ، وعن المؤمنين بعامّة، وعن الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بخاصّة، وعن المشركين، وعن المنافقين بعامة، وعن الأعراب الّذين فيهم شعبةٌ من النفاق بخاصّة، وأومأت إلى اليهود بالإيماء إلى الفتح القريب الّذي فُسّر بأنه فتح خيبر، وإلى التّوراة، وأومأت إلى النصارى بالإيماء إلى الإنجيل.

١٠- نصت الآية الكريمة الثّانية من سورة الفتح على أن الحقّ جلّ وعلا قد غفر للمصطفى ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومع ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام كثير العبادة والاستغفار، وقد وردت الأحاديث الكثيرة بذلك، ومنها الحديث المتفق عليه[1] عن عائشة رضي الله عنها أنّ نبيّ الله ﷺ كان يقوم من اللّيل حتى تتفطر[2] قدماه . فقالت عائشة : لِمَ تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أحبّ أن أكون عبداً شكوراً. فلما كثر لحمه صلّى جالساً. فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثمّ ركع.

١١- جاء في سورة الفتح وَحْدَها في موضعين اثنين القول : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وذلك في الآيتين الكريمتين الرّابعة والسّابعة.

١٢- جاء في سورة الفتح وحدها في موضعين اثنين القول : ﴿ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ وذلك في الآيتين الكريمتين السادسة والثانية عشرة.

١٣- جاء القول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ مرّةً في سورة الفتح في الآية الكريمة السادسة، ومرّةً أخرى في سورة التوبة في الآية الكريمة الثامنة والتسعين.

١٤- جاءت لفظة الحميّة والقول : ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ في سورة الفتح وَحْدها، دليلاً على سيطرة النّعرة الجاهلية على المشركين حينما صدّوا النّبيّ ﷺ والمسلمين عن أداء العمرة عام الحديبية. جاء في الآية الكريمة السادسة والعشرين القول:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

---

[1] فتح الباري ٨ / ٥٨٤ حديث رقم ٤٨٣٧ واللّفظ للبخاري وصحيح مسلم ٤ / ٢١٧٢ حديث رقم ٢٨٢٠ .

[2] تتفطر : تتشقّق .

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾. وفي مقابل حميّة جاهلية المشركين إنزال الله تعالى السّكينة والطمأنينة على المصطفى صلّى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين.

١٥- جاء في تسع آيات كريمات النّص على أنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى ، وهذه الآيات الكريمات هي ٨ و ٩ و ١٢ و ١٣ و ١٧ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ وفي ذلك تسفيه لمشركي قريش الّذين أصرّوا على أن تحذف من صحيفة الصّلح صفة محمّد ﷺ أنه رسول الله تعالى.

١٦- جاء القول : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ في الآية الكريمة التاسعة والعشرين من سورة الفتح وحدها في القرآن الكريم كله.

١٧- جاء النص في الآية الكريمة الثامنة والعشرين على أن الله سبحانه وتعالى سوف يُظهر دين الإسلام على سائر الأديان.

وهذا الوعد الحقّ من الله تعالى يجيء في الوقت الذي كان فيه عدد المسلمين قليلاً مع النّبي ﷺ في عمرة الحديبية، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

١٨- رؤيا النّبيين حقّ. وهذه هي رؤيا النبي ﷺ بزيارة المسجد الحرام تنص الآية الكريمة السابعة والعشرون على تأويل الحق جل وعلا لها بدخول المصطفى ﷺ والمؤمنين المسجد الحرام في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبعة. قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

١٩- مغفرة الله تعالى تسبق عذابه. جاء في الآية الكريمة الرّابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ .

٢٠- المخلّفون من الأعراب إحدى الفئات الّتي تحدّثت السّورة الكريمة عنها كثيراً، وذلك في الآيات الكريمات من الحادية عشرة إلى السادسة عشرة.

٢١- رحمة الله تعالى تسبق عذابه، جاء في الآية الكريمة الخامسة والعشرين القول : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ومن الذين شملتهم رحمة الله تعالى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما.[1]

٢٢- في السورة الكريمة العديد من الإشارات المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب. إنّ صلح الحديبية فتحٌ مبين، والله تعالى سوف ينصر حبيبه ﷺ نصراً عزيزاً ، وسوف ينصر المؤمنين على كل أعداء الدين، وفتح خيبر عاجل وكذلك الغنيمة، وفتح مكة غير بعيد، والمغانم كثيرة، والمخلفون من الأعراب سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد يقاتلونهم أو يسلمون، والنبي ﷺ والمؤمنون

---

[1] انظر - مثلاً - تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووي ٢ / ٣٠ .

سيدخلون المسجد الحرام وكان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة من سنة سبع، ودين الإسلام سيظهره الله تعالى على الدين كلّه.

٢٣- بيئة المدينة المنّورة زراعيّة، وينبغي أن يكون التشبيه التمثيلي الّذي اعتمد على الزّرع في وصف تحوّل المسلمين من الضعف إلى القوة، والقلة إلى الكثرة، غايةً في البلاغة والقدرة على الاستحواذ على إعجاب سكّان تلك البيئة الزراعية، وخلب ألبابهم في المقام الأوّل. جاء في الآية الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة في وصف الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في فجر الإسلام وهم يلتفون حول المصطفى ﷺ كالكواكب بالبدر، جاء قول الحق جلّ وعلا : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

٢٤- ثمّة ظاهرة أسلوبية تبدو شديدة الوضوح وكأنها ترتبط بسورة الفتح ارتباطاً وثيقاً. وهذه الظاهرة الأسلوبية تُرتب وفقها حبات عقد المعنى بطريقة فريدة ترضي كل عقل حصيف، بحيث إنّ هذه الطريقة الفريدة في ترتيب حبّات عقد المعنى؛ تتكرر في السورة الكريمة. وخير ما يفسّر هذه الظاهرة الأسلوبية الوقوف على شواهدها. جاء في الآية الكريمة الخامسة القول : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾ ومعنى الآية الكريمة كما مرّ بنا من قبل، والله تعالى أعلم: إنّا فتحنا لك يا محمّد فتحاً مبينًا لتقوم بما يجب عليك من شكر لله تعالى وليقوم المؤمنون والمؤمنات بما يجب عليهم من شكر لله تعالى ليدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويمحو عنهم سيئاتهم. وكان

دخول جنات النعيم فوزاً عظيماً ونجاحاً كبيراً عند الله تعالى. ويلاحظ تقديم دخول الجنات في الآية الكريمة على تكفير السيئات الذي يسبق دخول الجنات . وقد تقدم المعنى الأهم وهو دخول الجنّات، وتأكدت هذه الأهمية بعودة التذييل في الآية الكريمة إلى هذا المعنى الأهم، وهو دخول الجنّات بفضل الله تعالى.

وجاء في الآيتين الكريمتين الحادية عشرة والثانية عشرة القول : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ والمعنى كما مرّ بنا، والله تعالى أعلم: سيقول لك يا محمّد المخلفون عن عمرة الحديبية من الأعراب : شغلتنا عن الخروج معك أموالنا وأهلونا، فاستغفر الله تعالى لنا ذنوبنا. يقولون لك يا محمد استغفر الله تعالى لنا ذنوبنا بألسنتهم وليس من أعماق قلوبهم الّتي فيها مرض النفاق. قل يا محمد لهم : إن استغفرت الله تعالى لكم وأراد الله تعالى بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً، وهل ينفعكم سؤالي الله تعالى أن يغفر لكم ذنوبكم؟ لا ينفعكم إن أراد الله تعالى بكم ضرّا.

الحقيقة إن الله تعالى كان بما تعملون خبيراً، فليس السبب الذي منعكم من الخروج معي انشغالكم بأموالكم وأهليكم، والحقيقة إنّ الّذي منعكم من الخروج معي هو أنكم ظننتم أن الرّسول ﷺ والمؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم أبداً، وزيّن الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء لكم ذلك الظن السيِّئ، وكنتم قوماً هلكى بالذنوب لقد نمّق

المخلّفون من الأعراب حبّتين من المعاني ورتبوهما ترتيباً طبيعياً هما العذر للتخلف عن الخروج وطلب الاستغفار.

ولما كان طلب الاستغفار هو أهم المعنيين ولكن الأعراب لم يكونوا جادّين في طلبه وسؤاله فقد كان الحديث عنه بعد ذلك ابتداءً مع فضح هؤلاء المنافقين. ثم كان تبيين الأسباب الحقيقية وراء تخلف الأعراب عن الخروج وهو ظنهم السيِّئ بالله تعالى وبالرسول ﷺ وبالمؤمنين.

وجاء في الآية الكريمة العشرين القول: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ والمعنى كما مرّ بنا، والله تعالى أعلم: وعدكم الله تعالى أيّها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ مغانم كثيرة تأخذونها مستقبلاً، فعجلّ لكم هذه الغنيمة بفتح خيبر، وكفّ أيدي النّاس عنكم حينما خرجتم مع النّبي ﷺ إلى مكة فلم يجرؤ أحد من الأعداء على الاعتداء على أموالكم وأهليكم ولتكون تلك النعمة بصرف الأعداء عن أموالكم وأهليكم آية لكم ايّها المؤمنون بأن الله تعالى هو مولاكم الذّي يدفع الأذى عنكم وينصركم، وليهديكم عزّ وجلّ إليه طريقاً مستقيماً، ينتهي بكم إلى الجنّة بفضل الله تعالى.

لقد كان الحديث ابتداءً عن تعجيل الله تعالى مغانم خيبر الّتي كانت في محرّم سنة سبع، ثم كان الحديث عن كف أيدي الأعداء قبل فتح خيبر، ثمّ كانت العودة إلى الحديث عن هذا المعنى المتأخر وهو نعمة كفّ أيدي الأعداء عن أموال المجاهدين وأهليهم، وتلك النعمة آية للمؤمنين بأن الله تعالى هو مولاهم.

لقد جاء الحديث عن غنيمة خيبر في صيغة الزّمن الماضي وذلك في القول : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ لتحقّق النّصر بإذن الله تعالى مستقبلاً فكأنه قد وقع. ثمّ إنّ الحديث في صدر الآية الكريمة عن الغنائم، كان موطّئاً للحديث عن أولى هذه الغنائم مستقبلاً، وهي غنيمة خيبر. ثمّ كان الحديث عن كف أيدي الناس عن المؤمنين، ثم كانت عودة الحديث عن هذه النعمة باعتبارها آية للمؤمنين، وقد تحدث عجز الآية الكريمة في هذه المعاني وهكذا لا يُراعى الترتيب الزّمني لتلك الحكمة الجليلة الّتي مفادها حديث الصدر في أحد المعنيين، وحديث العجز في آخر المعنيين.

ومما قد يعمق من هذه الظاهرة الأسلوبية ما جاء في الآية الكريمة الأخيرة من السورة الكريمة بشأن صفة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في التوراة والإنجيل. إن الصفة في التوراة المتقدمة زمناً تتعلق بالصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقد أصبحوا أمّة، وإنّ الصفة في الإنجيل المتأخر زمناً تتعلق بهم وهم في أولى مراحل اعتناق الإسلام، رضوان الله تعالى عليهم، والله تعالى أعلم.

٢٥- نودّ أن نستعرض بإيجاز معاني السورة الكريمة كي تتبين وحدتها العضوية ووحدتها الموضوعية بعد أن تبينت بإسهاب بين يدي التفسير من ذي قبل، ولله الحمد والمنّة.

إنا فتحنا لك يا محمد بصلح الحديبية فتحاً مبيناً، لتقوم بما يجب عليك من شكر لله تعالى على نعمه عليك، ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ولتتمّ بقيّة النعم عليك، وليقوم المؤمنون والمؤمنات بما يجب عليهم من الشّكر لله تعالى على نعمه، ومنها إنزال السكينة عليهم، ولتتمّ بقيّة النّعم عليهم، وليعذّب جلّ وعلا المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الّذين يتصفون بمجموعة من الصفات السيئة، ومن تلك الصفات السيئة أنهم لا يفردون الله تعالى بالعبادة، ولا يصدقون

المصطفى ﷺ، ومن الأدلة على ذلك إصرارهم على حذف صفة الرّسالة عنه ﷺ في وثيقـــة الصلح.

إن المؤمنين تتحقق فيهم النعوت المطلوبة،ومنها الجهاد في سبيل الله تعالى،والمبايعة على عدم الفرار في ميدان القتال، وإن المنافقين والمشركين تتحقق فيهم الصفات السيئة. ومن هؤلاء الأعراب الأشد كفراً ونفاقاً أولئك الذين تخلفوا عن الخروج مع النبّي ﷺ واختلقوا الأعذار ولم يكونوا صادقين في طلبهم منه ﷺ أن يستغفر الله تعالى لهم، والذين كانوا حريصين على الغنائم. إن عليهم أن يتوبوا إلى الله تعالى وأن يهيئوا أنفسهم كي ينخرطوا مستقبلاً في صفوف المجاهدين في سبيل الله تعالى، إن الجهاد إنما يسقط عن ذوي الأعذار وحدهم.

وفي مقابل الكافرين والمنافقين هنالك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أصحاب بيعة الرضوان الذين علم الله تعالى صدقهم فأكرمهم بالكثير من النعم العاجلة والآجلة من سكينة، وفتح خيبر، والحصول على الغنائم، وفتح مكة المكرمة، ووعد بالنصر على الأعداء في كل المواطن.

أمّا كفار مكة فقد اتصفوا بمجموعة من الصفات السيئة، ولولا امتزاجهم بالمسلمين في الحرم لأذن الله تعالى بقتالهم،وبالفتح،ولكنه عز وجل لم يأذن بذلك وأنزل على المؤمنين السكينة في مقابل حمية الجاهلية التي اتصف بها المشركون.

وفي القسم الأخير من السورة الكريمة،كان الحديث المستفيض عن المصطفى ﷺ وعن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وصفاتهم في التوراة والإنجيل، وعن وعد الله تعالى الحق والصدق بأن يظهر دين الإسلام على الدين كله،وكفى بالله تعالى شهيداً، وعن الثواب الجزيل للمؤمنين الذين يعملون الصالحات وذلك بدخول جنات النعيم المقيم. وفي هذا القسم، الشهادة من رب العالمين إلى يوم الدين لمحمد بن عبد الله ﷺ

بالقول : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صدق الله العظيم . وصلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رابعاً : سورة الحُجُرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ
لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ
ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ
بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ
وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ
إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ
فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن
نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ
ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب
بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ
شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ
قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

بين يدي التّفسير

(١)

" على المؤمنين أن يكون هواهم تبعاً لما جاء به محمّدُ ﷺ ، وبعض الآداب في قول المؤمنين له ﷺ وفعلهم "

الآيات (١ - ٥)

يا أيها الّذين آمنوا لا تتقدّموا بين يدي الله تعالى بقولٍ أو فعل. واتّقوا الله تعالى بطاعته وعدم معصيته. إنّ الله تعالى سميعٌ لكلّ قول، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وفعل. ويلاحظ أنّ حقّ الله تعالى هو الّذي يقدّمه السّياق، يليه حقّ المصطفي ﷺ. ويستمرّ السّياق في تبين بعض الآداب الّتي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون في قولهم للنّبي ﷺ وفعلهم. يا أيها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبيّ ﷺ حينما تخاطبونه عليه الصّلاة والسّلام أو تخاطبون الآخرين في مجلسه بحضرته، ولا تجهروا له بالقول حينما تتكلّمون معه كما يجهر بعضكم لبعضٍ بالقول، خشية أن يبطل ثواب أعمالكم وأنتم لا تعلمون. أمّا الّذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ حينما يكلمونه أو يكلّم بعضهم بعضاً، أولئك هم الّذين امتحن الله تعالى قلوبهم للتّقوى، واختبرها بالابتلاء، وأخضعها للتّمحيص، فذهب أذاها وقذاها كما يذهب وسخ المعدن الّذي يخضع في البوتقة لشديد النّار. إنّ لأولئك الّذي صفت قلوبهم وخَلَتْ من كلّ شائبة مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً في جنّات النّعيم. وإنّ الّذين ينادونك يا محمّد من وراء الحجرات وقت القائلة بقصد أن يفاخروك بين يدي إعلان إسلامهم ، أكثرهم لا يعقلون. إنّهم وفد تميم من الأعراب. و لو أنّهم صبروا حتّى تخرج إليهم في الوقت الّذي يروقك لكان خيراً لهم من إزعاجك. والله تعالى غفورٌ ذنب من استغفره، رحيمٌ به أن يعذّبه بعد أن قبل توبته. إنّ

للبيوت وأهلها حرمات ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار، وإنّ لبيوت النّبيّ ﷺ ولذاته الشّريفة حرمةً أكبر من أي حرمة.

ولا يخفي أنّ للمؤمنين الحظّ الموفور من هذه الحرمات، فعلي المؤمنين أن يتأدّبوا بهذه الآداب القرآنية، وأن يعلموا حقّ الله تعالى على عبادة، وحقّ المصطفى ﷺ ، وحقّ عباد الله تعالى إخوانهم المؤمنين.

(٢)

" آداب قرآنيّةٌ لتعميق الأخوّة الإيمانيّة"

الآيات (٦ - ١٣)

الآدابُ القرآنيّة في هذا القسم لتعميق حقيقة الأخوّة الإيمانيّة، و معنى قول الحقّ جلّ و علا في إحدى آيات هذا القسم : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ينادي السّياق الّذين آمنوا بالله تعالى و برسوله ﷺ بأنّهم إن جاءهم فاسقُ بنبأ كاذبٍ فعليهم أن يتثبّتوا خشية أن يصيبوا قوماً بأذى بباعث الجهل بحقيقة القوم المكذوب عليهم، وبباعث الاندفاع والتّهوّر بدل التّروّي والتّأكد، فيصبحوا بعد ظهور الأمر على جليّته من النادمين على الاندفاع والطّيش وعلى الأذى الّذي ألحقوه دون وجه حقّ بالمظلومين. لقد كاد المصطفى ﷺ يقع في هذا المحظور بسبب الفاسق الّذي جاء بالنبأ الكاذب عن بني المصطلق بأنّهم منعوه الزّكاة الّتي ذهب إليهم ليأخذها، وبأنهم همّوا بقتله، وبسبب اندفاع فريقٍ من المؤمنين لهذا النّبأ قبل التّثبّت وحثّه النّبيّ ﷺ على أن يبعث لتأديب القوم الّذين منعوا الزّكاة وهمّوا بقتل رسول النّبيّ ﷺ. إنّ السّياق يأمر

المؤمنين بعامّة، وهذا الفريق بخاصّة بأن يعلم أنّ فيهم رسول الله ﷺ الّذي يرشده الحقّ جلّ وعلا إلى وجه الصّواب في كلّ أمر. إنّ الرّسول ﷺ لو يطيع الّذين تلك صفتهم في كثيرٍ من الأمر لوقعوا في العنت والمشقّة والصّعوبة. إنّ على الّذين تلك صفتهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الّذين لا يتقدّمون الله تعالى ورسوله ﷺ بقولٍ ولا فعل، كي يتّصف المؤمنون جميعاً بأنهم هم الّذين حبّب الله تعالى إلى نفوسهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والمعاصي. إنّ أولئك هم الرّاشدون حقاً، السّالكون الطّريق المستقيم، الّذين يكرهون العودة إلى الكفر كما يكرهون أن يُلْقى بهم في النّار، ويكرهون الفسوق كالنّبأ الكاذب عن بني المصطلق، ويكرهون العصيان كأن يتقدّموا بين يدي الله تعالى ويدي رسوله ﷺ بقولٍ أو فعل. إنّ تلك النّعوت الّتي حبّبها الله تعالى العليم الحكيم إلى المؤمنين؛ إنّما هي محض فضلٍ ونعمة منه عزّ و جلّ، الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً ، والّذي تتجلّى حكمته في كلّ أمر.

إنّ مثل النّبأ الكاذب الّذي جاء به الفاسق قد يكون السّبب وراء قتالٍ بين طائفتين من المؤمنين فتثبتوا أيّها المؤمنون من كلّ نبأ، وقد تكون هنالك أسبابٌ أخرى للقتال. وهذا هو حكم الله تعالى في هذه الحال. إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما بالدّعاء إلى حكم الله تعالى و الرّضا به. فإن رضيت إحداهما بحكم الله تعالى ورفضت الأخرى وبغت على أختها؛ فقاتلوا أيّها المؤمنون الفئة الباغية حتّى ترجع إلى أمر الله تعالى وترضى بحكمه. فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالعدل واحكموا بينهما بالقسطاس المستقيم، والميزان القويم. إنّ الله سبحانه وتعالى يحّب الّذين يحكمون بين النّاس بالعدل، فبهذا وصّى عزّ وجلّ.

إنّ المؤمنين أجمعين إخوةٌ في الدّين، وليس العلاقة بينهما دون الأخوّة الإيمانّية، ولا ينبغي أن يكون ما بينهم دون مرتبة الأخوّة، فاعلموا أيّها المؤمنون على رفع ما بين

المتخاصمين إلى مرتبة الأخوّة، واتقوا الله تعالى فيما ائتمنكم عليه من الحكم بالعدل والقسطاس المستقيم، لعلّ رحمة الله أن تشمل الجميع فترفرف المحبّة ويسود السّلام.

وبعد أن أرشد السّياق إلى بعض أسباب تعميق الأخوّة الإيمانيّة بين طوائف المؤمنين، أرشد إلى بعض أسباب تعميق هذه الأخوّة بين الجماعات والأفراد. إنّها مجموعة من النّواهي الّتي يلتزم بها من يتّقي الله تعالى التّوّاب الرّحيم.

ينادي السّياق الّذين آمنوا وينهاهم عن أن يسخر رجالٌ من رجالٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم عند الله تعالى، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنّ خيراً منهنّ عند الله تعالى كما ينهاهم عن أن يعيب بعضهم بعضاً ويتتبّع عورته فيغري الآخر بأن يعامله بالمثل، فكأنّه في الحقيقة قد عاب نفسه وتتبّع عورته. كما ينهاهم عن أن يدعو المؤمن أخاه باللّقب الّذي يكرهه، بل عليه أن يدعوه بأحبّ الأسماء والألقاب إليه. إنّ الّذي يرتكب شيئاً ممّا نهى الله تعالى عنه هو الفاسق، وإنّ الصّفة الّتي يتّصف بها هي الفسوق. وبئس الاسم الفسوق الّذي أصبح يُدْعَى به من ارتكب شيئاً ممّا نهى الله تعالى عنه بعد صفة الإيمان التي كان يتّصف بها وبعد أن كان يوصف بالمؤمن. إنّ من لم يتب عمّا نهى الله تعالى عنه ممّا يؤدّي به إلى أن يوصف بأنّه فاسق، فأولئك هم الظّالمون، الّذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين.

وينادي السّياق بعد ذلك الّذين آمنوا ويأمرهم بأن يجتنبوا كثيراً من الظّنّ السّيئ بإخوانهم المؤمنين، إنّ بعض الظّنّ إثمٌ عظيم ، وذنبٌ كبير. كما ينهاهم عن التّجسس والبحث عن عيوب إخوانهم، بل عليهم الاكتفاء بما ظهر لهم من أمور إخوانهم، وينهاهم عن الغيبة. وفي سبيل التّنفير من الغيبة يسأل السّياق في إنكار : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ! الجميع يكره ذلك عقلاً. كما يكره الواحد منكم عقلاً أن يأكل من جثّة أخيه الميّت المنتنة، كذلك ينبغي أن يكره شرعاً أن يأكل لحم

أخيه حيّاً بالغيبة ، وهي ذكره أخاه بما يكره . إنّ على الجميع أن يتّقي الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي. إنّ الله توّاب يقبل توبة عباده التّائبين، رحيمُ لا يعذّب من تاب توبةً نصوحاً وقبل توبته.

وتُختتم آيات القسم بنداء النّاس أجمعين، و إخبارهم أن الحقّ جلّ وعلا خلقهم من ذكرٍ وأنثى ابتداءً من أبوينا آدم وحوّاء عليها السّلام، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليتناكروا، ولا فضل لعربّي على عجمّي، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقّوى. إنّ أكرمهم عند الله تعالى أتقاهم، فلا مجال للنّسب، ولا للجنس، ولا للوطن، ولا للّون، ولا للّغة، ولا للدّم، ولا لأيّ عصبية من هذا القبيل. إنّ الله سبحانه وتعالى عليمُ بمن اتّقاه وبمن يستحقّ رفيع المترلة عنده عزّ وجلّ، خبيرٌ ببواطن الأمور، ودخائل النّفوس، والقلوب، والصّدور.

(٣)

" المؤمنون صادقو الإيمان هم الّذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم"

الآيات (١٤ - ١٨)

لّما كان المطلوب أن تعمّ الأخوة الإيمانية الكون كلّه، بدليل نداء آخر آيات القسم السّابق النّاس أجمعين وإخبارهم أنّ أكرمهم عند الله تعالى أتقاهم، وقد تكفّل الله تعالى بإظهار دين الإسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله تعالى شهيداً، فقد كان آخر أقسام السّورة الكريمة معنيّاً بهذا المطلوب و تلك الغاية السّامية النّبيلة. إنّ الأخوّة الإيمانيّة كي تشمل الكون كلّه بحاجة إلى صدق الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ

وصدق الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنّفس. لقد حقّقت السّورة الكريمة هذا الهدف السّامي النّبيل عن طريق الحديث عن فريقٍ من الأعراب ادّعوا بلوغ مرتبة الإيمان وهم لمّا يبلغوا تلك المرتبة. قالت الأعراب قد بلغنا مرتبة الإيمان . قل لهم يا محمّد لم تبلغوا مرتبة الإيمان بعد، ولكن قولوا أسلمنا وأعلنّا الدّخول في الإسلام بألسنتنا. إنّكم أيّها الأعراب إن تطيعوا الله تعالى ورسوله ﷺ لا ينقصكم الله تعالى شيئاً من ثواب أعمالكم. والله تعالى هو الغفور الرّحيم، فاستغفروه، واسألوه أن يتغمّدَكم برحمته عزّ وجلّ.

فمن هم المؤمنون الصّادقون الإيمان؟ إنّهم الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، ثمّ لم يتسرّب لإيمانهم أدنى شكّ، وجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله تعالى.

قل يا محمّد لأولئك الّذين ادّعوا بلوغ مرتبة الإيمان : أتعلّمون الله تعالى بحقيقة إيمانكم، والله تعالى يعلم ما في السّماوات وما في الأرض، والله تعالى بكلّ شيءٍ عليم، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. إنّهم يمنّون عليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بأنّهم أسلموا دون قتال، خلافاً لغيرهم من قبائل العرب، قل لهم يا محمد : لا تمنّوا عليّ إسلامكم، بل الله تعالى يمنّ عليكم أن هداكم إلى الإيمان الّذي هو فوق الإسلام، إن كنتم صادقين في ادّعائكم الإيمان. فلله تعالى وحده لا شريك له الحمد والمنّة. إنّ الله تعالى يعلم غيب السّماوات والأرض، والله بصيرٌ بما تعملون أيّها النّاس، فكونوا جميعاً مؤمنين صادقين، وجاهدوا في سبيل الله تعالى بأموالكم وأنفسكم، حتّى يظهر دين الإسلام بإذن الله تعالى على الدّين كلّه، وحتّى تعمّ الأخوّة الإيمانيّة الكون كلّه.

التّـفسير

(١)

" على المؤمنين أن يكون هواهم تبعاً لما جاء به محمّد ﷺ، وبعض الآداب في قول المؤمنين له ﷺ وفعلهم "

الآيات (١ - ٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾

لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله : لا تتقدموا بقولٍ ولا فعل[1] [1] وتحقيقه لا تسبقوه القول والحكم بل افعلوا ما يرسمه لكم كما يفعل العباد المكرمون وهم الملائكة حيث قال[2] : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [3].

يا أيها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ لا تتقدّموا الله تعالى ورسوله ﷺ ولا تسبقوا بقولٍ، أو فعل، أو حكم، أو أيّ أمر. إنّ عليكم أيّها المؤمنون أن تكونوا دائماً و أبداً تابعين لكلّ ما أوحى الله تعالى به إلى رسوله الكريم ﷺ، قرآناً كريماً وسنّة نبويّة مطّهرة. واتّقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. إنّ الله تعالى سميعٌ لكلّ قول، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وفعل، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

---

[1] الجلالين

[2] سورة الأنبياء ٢٧

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " قدم " ٢ / ٥١٤

روى البخارّي في صحيحه[1] عن عبد الله بن الزّبير أنّه قدم ركبٌ من بني تميم على النّبيّ ﷺ فقال أبو بكر : أَمِّرِ القعقاع بن معبد، وقال عمر بل أمِّر الأقرع ابن حابس. فقال أبو بكر : ما أردتَ إلى – أو إلاّ – خِلافي. فقال عمر : ما أردت خلافك، فتماريا حتّى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك الآية الكريمة .

وجاء الحديث في موضعٍ آخر من صحيح البخاريّ[2] وفيه فأنزل الله تعالى الآية الكريمة الثّانية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ .

ويصحّ أن يُفْهَم من مجموع الأحاديث أنّ الآيات الكريمات الثّلاث الأول من السّورة الكريمة نزلت معاً لترابط المناسبات وتداخلها . والله تعالى أعلم .

---

[1] فتح الباري ٨ / ٥٩٢ حديث رقم ٤٨٤٧

[2] فتح الباري ٨ / ٥٩٠ حديث رقم ٤٨٤٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

أن تحبط أعمالكم : مخافة أن تحبط أعمالكم[1] فالمصدر المؤوّل : ﴿ أَن تَحۡبَطَ ﴾ في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية أن تحبط أعمالكم[2]

يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبيّ ﷺ حينما تتكلّمون معه عليه الصّلاة والسّلام أو حينما يكلّم بعضكم لبعضٍ بحضرته عليه الصّلاة والسّلام، بل لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض حينما تتكلّمون معه عليه الصّلاة والسّلام، مخافة أن تحبط أعمالكم الصّالحة، وخشية أن يبطل ثواب أعمالكم الحسنة، بسبب رفعكم أصواتكم فوق صوت النّبيّ ﷺ أو جهركم له بالقول، وأنتم لا تشعرون أنّ أعمالكم الصّالحة قد ذهب ثوابها أدراج الرّياح.

إنّ المطلوب منكم أن تغضّوا أصواتكم عند رسول الله ﷺ على نحو ما بّينت الآية الكريمة التّالية .

روى البخاريّ في صحيحه[3] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ افتقد ثابت بن قيس[4]. فقال رجل: يا رسول الله تعالى أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه، فقال له : ما شأنك ؟ فقال: شرّ. كان يرفع صوته فوق صوت النّبيّ ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النّار. فأتى الرّجل النّبيّ ﷺ فأخبره

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦ / ٧٦

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٩٢

[3] فتح الباري ٨ / ٥٩٠ حديث رقم ٤٨٤٦ و انظر صحيح مسلم ١ / ١١٠ حديث رقم ١١٩

[4] كان الخطيب لمّا وقع الكلام في المفاخرة بين بني تميم المذكورين . فتح الباري ٨ / ٥٩١

أنّه قال كذا وكذا .فقال موسى[1] فرجع إليه المّرة الآخِرة ببشارةٍ عظيمة فقال : اذهب إليه فقل له : إنّك لست من أهل النّار ولكنّك من أهل الجنّة.

---

[1] أحد رواة الحديث

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

يغضّون أصواتهم : الغضّ النّقصان من الطّرف والصّوت[1] .

امتحن الله قلوبهم للتّقوى: اختبر الله قلوبهم بامتحانه إيّاها فاصطفاها وأخلصها للتّقوى ، يعنى لاتّقائة بأداء طاعته واجتناب معاصيه كما يمتحن الذّهب بالنّار فيخلص جيّدها ويبطل خبثها[2].

إنّ الّذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعالى حينما يكلّمونه عليه الصّلاة و السّلام أو يتكلّمون بحضرته فيما بينهم؛ أولئك الّذين اختبر الله تعالى قلوبهم وأخضعها للتّقوى ومحّصها، كي تكون خاليةً من كلّ شائبة، خالصةً من كلّ قذّى وأذى، ممتلئةً بالإيمان، مفعمةً بالتّقوى. إنّ لأولئك الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ﷺ مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً في الجنّة الّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين.

ومن الّذين كانوا يغضّون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بعد نزول الآيات الكريمات وكأنهم يناجونه عليه الصّلاة والسّلام، أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما[3] .

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " غضّ " ٢ / ٤٦٨

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٧٦ والضّمير من جيّدها وخبثها يعود إلى المعادن المفهومة ضمنًا أو سبيكة الذّهب .

[3] فتح الباري ٨ / ٥٩١

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

من وراء الحجرات : الحجرات جمع حُجْرة . والثّلاث جُجَر ثمّ تُجْمَع الحُجَر فيقال حُجُرات بضمّ الجيم وحجرَات بفتح الجيم[1].

سبب النّزول

نزلت الآيتان الكريمتان في وفد تميم الّذي قدم على النّبيّ ﷺ فيمن قدم من وفود العرب في سنة تسعٍ من الهجرة ، وهي السّنة الّتي تُسَمَّى سنة الوفود ، وذلك بعد أن افتتح رسول الله ﷺ مكّة، وفَرَغ من تبوك، وأسلمت ثقيف[2] وكان كلّ واحدٍ منهم نادى خلف حجرة ، لأنهم لم يعلموا رسول الله ﷺ في أي حجرة ، مناداة الأعراب بغلظةٍ وجفاء[3] ورُوي أنّ الأقرع بن حابس التميميّ أحد بني دارم بن مالك[4] نادى رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات فقال : يا محّمد يا محّمد. وفي رواية : يا رسول الله، فلم يجبه، فقال : يا رسول الله إنّ حمدي لزين، وإنّ ذمّي لشين، فقال : ذاك الله عزّ وجلّ[5].

إنّ أعراب وفد تميم ينادونك يا محّمد في وقت القائلة؛ من وراء حجرات نسائك أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ، أكثرهم لا يعقلون ولا يفهمون ما يجب لك من توقير وحقوق. إنّهم لا يعلمون ما يجب لك عند النّداء من خفضٍ للصّوت ، وعند

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦ / ٧٦ و انظر الكشّاف ٣ / ١٤٧

[2] انظر السّيرة النّبويّة ٤ / ٢٠٥ و أسباب النّزول ٤٤٦

[3] الجلالين

[4] السّيرة النّبويّة ٤ / ٢٠٧

[5] تفسير ابن كثير ٧ / ٣٤٩ نقلاً عن مسند الإمام أحمد .

الظّهيرة من حقٍّ في الرّاحة. ومِنْ أجل أيّ شيءٍ هم جاؤوا أوّلا ؟ هم جاؤوا من أجل أن يفاخروه ﷺ بخطيبهم نثراً ، و بشاعرهم شعراً ، بين يدي المبايعة على الإسلام[1].

ولو أنّ هؤلاء الأعراب الجفاة صبروا حتّى تخرج أنت يا محمّد إليهم؛ لكان ذلك خيراً لهم من ندائك من وراء الحجرات بطريقة فظّة وإزعاجك. والله تعالى غفورٌ لمن استغفره، رحيمٌ أن يعاقب من تاب إليه عزّ وجلّ وأناب، وقبل توبته وإنابته.

---

[1] السّيرة النّبويّة ٤ / ٢١٢